العرب
الأحد 2020/02/23
السنة 42 العدد 11626

لوحة للفنان وليد نظمي

أيامي العجاف

آسيا رحالية
كاتبة جزائرية

يقتلني هذا الفراغ.. يفتّتني، يحيلني أشلاء. أحسّه بداخلي يثقل كاهل أيامي، يغتال أنوثتي، يفقدني الإحساس بنفسي وبالعالم.

يد الزمن تجلدني بسياط الحرمان والقنوط، فتحيلني كائنا من حزن، امرأة من خواء بلا غد، بلا هوية، ولا تاريخ، ولا عنوان. أرض بور أنا نخلة تطرح عراجين الدمع، قمر هجره الضياء، سماء خاصمتها النجوم، حديقة ضربها الجدب ونسيها الربيع، صحراء قاحلة لا تنبت شيئا، ولا حتى الصبار.

هذا صباح آخر.. اليوم أيضا سأرتدي وجها غير وجهي.. سأستعير ملامح امرأة ليست أنا، امرأة مستسلمة، راضية، لا تكترث أبدا، أو ربما تكترث قليلا، قليلا فقط.

– صباح الخير. هل نمت جيدا؟.

– صباح الخير. نعم. شكرا.

صباح الفراغ الذي يملأني ولا أعرف كيف أملأه. هل نمتُ جيدا؟ طبعا نمت، بعد أن راجعت دفتر حرماني، بعد أن تأكدت كم يلزمني من الصبر والإيمان لكي أستطيع أن أستمر.

أنت تبدو بحالة جيدة. هل أصدق أنك لا تكترث؟ أيمكن أن لا يقلقك الأمر فعلا؟. "هوني عليك حبيبتي. أحبك أنت ولا يهمّني أي شيء آخر". قد تكون صادقا، ولكن ألا تشعر بالملل، ألم يعتريك اليأس وأنت طيلة سنوات تزرع بذورك في البحر؟ وماذا بعد. سنة أخرى، أو سنتين، أو خمس؟.. هل ستسألني السؤال نفسه، إذا نمت جيدا؟ هل سيعوّضك حبي، دائما، عن رغبة تعتمل في أعماقك؟ تحاول إخفاءها فتخونك نظراتك وتنهّداتك!

هل تعتقد أنها تفوتني تلك التعاسة التي أقرؤها في عينيك كلما سمعتَ بكاء طفل أو ضحكه؟

نتقابل على مائدة الفطور، نحتسي قهوتنا، نحتسي معها حلما جميلا رأى النور في ليلة العمر، ثم ظل يتأرجح بين الحياة والموت، إلى أن لفظ آخر نفس، ذات صباح حزين، بسقوط الحكم النهائي: "عقم ناتج عن تشوّه خلقي".

نتجاذب أطراف الصمت. ثم أخيرا، نتبادل بضع كلمات ونغادر. كل إلى عمله.

يتلقّفني الشارع. الشمس ترسل ابتسامة خجولة، دافئة، في انتظار أن تكشّر عن لهيبها الحارق. ظلي المشوّه يرافقني. ترى من منا ظل الآخر؟

أسرع صوب المستشفى، يدعوني الواجب، اليوم أيضا سأضع آخر لمسات الفرحة في حياة نساء أخريات. يسابق خطواتي شعور بالضآلة والدونية، والغربة، عنّي، عن كل ما حولي، عن جسدي.

آه يا جسدي اللّدود، يا أعضائي الخائنة!

ألمح وجهي في واجهة محل. من أنا؟.. امرأة؟ رجل؟ نصف امرأة؟ أقهقه في سري، ضحك هستيري يدغدغني.

أتحسسّ جسدي بأنامل خيالي، أتلمّس مواطن أنوثتي.. لست رجلا، ليتني كنت رجلا، ولو غبيا بما يكفي ليجد القدرة على أن يكون سعيدا.

تمرّ بقربي امرأة، مزهوّة كطاووس. تتأبّط ذراع رجل ليس أقل منها زهوا. بطنها المكوّر يسبقها بخطوات. تنظر إلي. هل تعرفني؟ هل تعرف أني لا أشبهها؟

أنا لست رجلا، ولست امرأة أيضا.

المستشفى مكتظ كعلبة سردين، كأن المدينة كلها تصب هنا في الرواق المؤدي إلى غرفة التوليد بضع نساء يتمشّين، يتلوّين من الوجع.

يا لحظي التعس! ما أسهل ما تحبل النساء.

أدخل غرفتي. أغيّر ملابسي، يستدعونني بسرعة، امرأة تعاني المخاض.

أمدّدها على الطاولة. صراخها يشتد، يتقارب، يعلو. ألمها يتضاعف، يتصبّب العرق منها،. يتشنّج جسدها. تستنجد بي نظرتها ودموعها.

أم لخمسة أطفال، والآن يأتي السادس.

إنها امرأة مغايرة، لا كبقية النساء. أثوابها فاخرة، منتقاة بعناية وقد تعددت ألوانها واختلفت تصاميمها، وشعرها مصفف بذوق رفيع على الدوام، وهي تنشر المرح حواليها سعيدة بزوجها المحب وأطفالها الأصحاء الناجحين في حياتهم. حتى إذا اصطدم سمعها بخبر الموت انقلبت معالم الهدوء في وجهها الجميل إلى توتر وشحوب، وحطت الظلال القاتمة على قسماته، وسرت رجفة عارمة في كامل جسمها، وارتخت كتفاها وتهدلت ذراعاها، فتتوقف عن ممارسة أي عمل، وتطبق على صدرها بذراعيها، وتتزوي في ركن من البيت لا تقوى على الوقوف، ولا المشي، ولا الكلام.. فإذا قال لها زوجها بلهجة المشفق:

– إن العرف يستدعي ذهابك، لوجود عنصر قرابة أو نسب بيننا وبين أهل المرحوم.

هزها هاجس غامض فجفلت واضطرب كيانها، وصارت أشلاء يصعب جمعها، فلا تسمع منها غير نفس يخفق بالرهبة. ويداعبها الأمل في التنصل من هذا البلاء العصي فتسأل زوجها بلهفة:

وهل حضر أهله إذ توفي أبواك؟

ويرد عليها بوقع هادئ:

المرحوم نفسه كان من بين الحضور.

وتغشاها الكآبة فيزداد شحوبها ويزوغ بصرها وينكسر صوتها. وبعد صمت ممل، وتفكير عميق، وبعد أن تيأس من إيجاد مبرر للتخلف، وتشعر بأن الظرف يستدعي القيام بهذا الواجب المقيت، تعطي موافقتها على أداء هذه المهمة الصعبة، بعد دفن المرحوم – طبعا –، فهي لا تقوى على دخول بيت المتوفى إلا إذا كان الجثمان قد نقل إلى مثواه الأخير.

وتقودها إحدى بناتها نحو غرفتها، فتساعدها على استبدال ثيابها، وإصلاح هندامها وانتعال حذائها، وهي ماثلة كالصنم، وقد أصاب الشلل صوتها فغدا مبحوحا..

تلتف في "حائكها" وتتأبط هلعها وتنزلق بهدوء تجر رجلين أثقلهما الرصاص، وقد أصابها دوار من بركب البحر، وكلما اقتربت من بيت المرحوم توغل الخوف في قلبها فتسارع نبضه وتناثرت الأحداث في ذاكرتها فهي تتمنى ألا يسألها أحد، لأنها لا تستطيع أن تجمع شتات ذهنها الشارد وتجيب إجابة صائبة، وحتى ما تيسر من القرآن يصبح صعبا عليها، فهي تحرص – في مثل هذه الحالات –، أن تتلو بعضا من الآيات، ولكنها تخلط بينها خلطا فظيعا، فتسكت.

ويلوح لها البيت الذي ازدحم الناس حول بابه، فيتعالى وجيب قلبها، وتختلط عليها الوقائع، وتتراقص أمام عينيها المرثيات فتدير رأسها ذات اليمين وذات الشمال قبل أن تدخل.. وبمجرد أن تحط قدميها في الدار حتى تقلب عينيها الزائغتين في أرجائها وزواياها، خوفا من أن تصطدم نظراتها بطيف من أطياف الموت وينبثق من أحد الجدران ويخطف روحها..

> **إذا عرض مقعد عليها، فهو من الشوك، إذ تظل تتلوى فوقه من جانب إلى جانب، وهي تحرص على أن تتخذ مجلسها قريبا من الباب**

وحتى لا تتوغل في البيت تبحث بعينيها عن ركن تحتمي فيه، ثم تقلب بصرها في النساء المتحجبات والسافرات، وقد تكتلت أجسامهن حتى لم يعد هناك فراغ، بل صرن كتلة واحدة من الأجساد، وتتفحص الوجوه التي تضاربت انفعالاتها بين التأوه والحسرة والتأثر والرثاء والاستسلام والوجوم. وتعمل على أن تغطي بعض جزعها بطرد الخوف من قلبها، وأن تسترجع بعض توازنها فتتبادل بعض الهمس مع نساء لا تعرفهن، وتجتهد في أن تشارك أهل الدار لوعتهم، ولكنها لا تستطيع فعل شيء والدموع تستعصي عليها. تظل ملتفة في حائكها حريصة على ألا تلمس يداها شيئا في هذا البيت، فإذا دعيت لتناول الطعام، اهتز كيانها اهتزازا عنيفا، وتقلصت عضلات وجهها، واقشعر بدنها، وغص حلقها، فعجزت عن الاعتذار، وإذا استطاعت فبصوت كالحشرجة، هي التي لو عرفت كيف تنقل معها الهواء لما استنشقت نسمة واحدة هنا.

فإذا عرض عليها مقعدا، فهو من الشوك، إذ تظل تتلوى فوقه من جانب إلى جانب، وهي تحرص على أن تتخذ مجلسها قريبا من الباب الخارجي لكي تتسلل مع أول فرصة تتاح لها، فأول امرأة تبادر بالخروج تنتفض واقفة، وتصر على مرافقتها مدعية بأن طريقهما واحد. وحتى لو أجلست بعيدا عن الباب، فلها قدرة غريبة على اختراق الصفوف من أجل الوصول إلى المخرج، لتندفع نحو الشارع ولتملأ رئتيها هواء.

تتدحرج بعد حين إلى بيتها بخطى منهكة، وقد اختلطت في ذهنها الأفكار والصور والأصوات، فشحب وجهها، ويبست شفتاها، وجف حلقها، فصار نفسها لهاثا، وتدخل بيتها فتسرع نحوها إحدى بناتها لتقودها نحو فراشها، وتلقي عليها بطانية علها ترخي أعصابها المشدودة جراء الانفعالات النفسية التي تعرضت لها بعد هذه المحنة الكبرى التي اجتازتها.. ولا ترمم نفسها من هذا الانهيار الداخلي إلا بمضي أيام طويلة.

المهمة الصعبة

جميلة زنير
كاتبة جزائرية

لوحة للفنانة شاره شمه

معطف لرجل طويل القامة

جنات بومنجل
كاتبة جزائرية

أعجبها المعطف الرجالي الأسود الذي كان معلقاً على دمية العرض مقابل جناح الملابس النسائية، عثرت عليه أثناء بحثها عن قميص ترتديه في أول يوم عمل بعد انقضاء العطلة المدرسية. اقتربت منه وتفحصته من كل الجهات. تحسست نوع القماش ونعومة ملمسه، تأملته كأنما تختار بينه وبين معاطف أخرى لأجل الرجل الذي تحلم به كل ليلة. ابتسمت، وفي أعماقها قررت "سيناسبه لونه ومقاسه"، فهو أسمر، طويل القامة مع شعر مجعد قليلا وشارب كثيف. تخيلته وهو يرتديه ويبدو جميلا عليه، لمست أزراره وكمية الطويلين، رأت أن بذلة بنية وقميصا أبيض وربطة عنق مخططة قد تبدو أكثر أناقة لو لبسها مع المعطف الجديد. سبحت بخيالها نحو مظهره الذي يعدله في مرآة غرفة النوم. تشبثت برقبته، ودفنت وجهها في دفء صدره. نفضت عنه بعض الغبار العالق، فتشت في جيوبه عن أثر امرأة أخرى، شعرت بغيرة شديدة: امرأة أخرى؟ لا يمكن أن يحدث ذلك أبدا!

ملأت صدرها بعطر أنفاسه، رأته وهو يربت على كتفيها ويطوقها ويضمها إليه بذراعيه القويتين حتى أحست بهشاشتها، حلّقت بعيدا في أحضانه، فكرت أن تسأله لماذا تأخر والجو ماطر في الخارج وهي منذ ساعات تنتظره من خلف زجاج النافذة وقد أشعلت الشموع وجهزت العشاء، لكنها فضلت أن تصمت مكتفية بضم كفيه بين كفيها، قربتهما من شفتيها، قبلتهما. كم تعشق خشونة ملمسهما. وملمس المعطف الناعم، غير أن المعطف قد بيع قبل ساعات وصاحبه سيأتي لاستلامه!

هكذا جاءها صوت البائع الواقف خلفها، قبل أن يردف قائلا: تعالي الأسبوع المقبل. سنستلم بضاعة جديدة.

ذئاب المدينة

عائشة بنور
كاتبة جزائرية

البارحة، تهاطلت القذائف على المدينة كالمطر، وارتفعت سحب الدخان الأسود تملأ الفضاء الرّحب، كان ريف المدينة يحترق إثر الغارات الجوّية التي كانت تُقذف في كل مكان ألسنة النيران الملتهبة تلتهم الأخضر واليابس، صوت الرصاص يعلو من المخابئ تحت الأرض، الجثث تتطاير أشلاؤها في كل مكان ودفقات الدماء تروي الأرض العطشى، ورأى الجميع من الترويع والهول والفزع ما لم يروه في حياتهم الماضية.. وجوه ملثمة لا تعرف أخا ولا صاحباً، وأصبحت المدينة غريبة كالإخوة الغرباء.. فما أقبح الصورة التي تراها بعد ذلك اليوم!

حَملته على ظهري جريحا، كان وحده في المكّان، وألسنة الدخان من حوله، نجا الرّجل بأعجوبة، قال لي وهو يئنّ من الوجع:

– تظاهرت بأنني ميّت، حينما كانوا يتفقدون الجرحى.

حَمَلني على اقتياده إلى أقرب منطقة بضواحي المدينة المشتعلة، تأملته بحنان وحبّ، وأنا أمرّر برفق أناملي المحترقة فوق ملامحه الدامية، أدركت أن بقاءه حيّا سيكون للحظات أو سويعات، ومع ذلك حمَلني روحه البريئة، وأن أكون له أخا سقت دماؤه هذه الأرض الطيبة التي مات من أجلها. حَملته على ظهري، وأنا جائع ومنهك القوى، منذ أسابيع لم أتناول شيئا تقريبا، وهذا بعد فراري من الأسر، حينما غافلت الحارس وهو نائم.

كان بجانب الحارس رشاش وقنينة ماء، أخذت الرشاش بحذر شدّيد، وتركت قنينة الماء، لأنها كانت تحت راحة يدّه. بقيت أتحدث إلى الرّجل المحموم، وأنا أحمله على ظهري طيلة الطريق حتى لا ينام. كان الرّجل المضرّج بالدّماء يردّ على كلامي بصوت التأوه والألم:

– أمْم.. أمْم.

في منتصف الطريق، توقف الرّجل عن الأنين، والدّم الذي ينزف من جسده ساح فوق جسدي، توقفت قليلا، وأنا ألهث من تعبي وجريي بين الأحراش متخفيا، وقد يبست شفتاي، وتورمت من شدّة الكدمات التي تلقيتها على وجهي.

خيّم صمته على صوتي اللاهث، وأثقل جسده كاهلي، ناديته:

– ناصر.. ناصر.

ثم طرحته أرضا، وأنا أهزّه هزا قويا وأردّد:

– لا تمت يا ناصر.. لم يبق إلاّ القليل.

لكن الرّجل، كان قد مات على ظهري.

وضعته أرضا، وقد غلبتني دموعي، فلقد مات الرّجل على ظهري وهو ينزف، وأنا أتذكر كلامه لي:

– أنا أخوك ناصر، ودمائي سقت هذه الأرض الطيبة.

ضممته إلى صدري بقوّة، تألمت كثيرا، وأنا أكمد غيضي، لم أستطع أن أصرخ في العراء وأقول:

– اللعنة عليكم، فنحن إخوة!

أعدّت حمله على ظهري، وأنا في طريقي إلى المدينة التي ألمحها من بعيد، أو تهيأ لي أنها قريبة مني، سمعت أصواتهم البعيدة قريبة مني، انزويت بالرّجل الميّت على ظهري في مكان كثيف الأشجار، وطرحته أرضا، قبلته على جبينه قائلا:

– سامحني أخي ناصر، سامحني.

تركته خلفي، وهربت بجلدي من إخوة أعداء، لم أستطع أن أواريه الثرى، فالأصوات المزمجرة كانت تقترب من المكّان أسرعت الخطى في اتجاه معاكس للأصوات التي كانت تبحث عني في كل مكان وتقتفي أثري.

اللّوحة

نسيمة بن عبدالله
كاتبة جزائرية

أقف الآن على المنصة، أحمل اللوحة بيد، والجائزة بيد، أنظر إلى الجمهور الذي تغص به القاعة، وهو يصفق، وزغاريد النساء تتعالى.. أنحني تحية لهم، أرفع رأسي، أرى وجهك بين الحضور وقد اكفهرت أساريرك، وانتفخت أوداجك، وأخرجت مسدسك، وأفرغت رصاصاته في لوحاتي، وألوانِي.

كان دمي ينزف، والألوان تسيل من العلب، والقارورات، وتلطخ سطح الغرفة، وأنت تصرخ في هستيريا:

– لا أريد هذه اللوحات في بيتي، لا أريد لهذه الشخوص أن تزاحمني مكاني، أبعدي عبثك هذا عني. تكلمت، وتكلمت، كنت أفهم شيئا، وتغيب عني أشياء، وأنا مكومة في الزاوية أنتظر دوري، أنتظر الرصاصة التالية تقطع شرايين القلب، وتسكت صوتي الطالع من لوحاتي. كم مضى من الوقت، وأنا مكومة هناك؟..

لا أذكر سوى صوت الممرضة وهي تقول: إنها الآن في أحسن حال، لقد استعادت وعيها.

يومها تمالكت أعصابي، حاولت بكل قوتي، بكل إيماني أن أظل ثابتة، وألا أفقد نور عقلي، ولا أرى جسدي يفقد لونه.

تحسست أعضائي عضوا عضوا، وحمدت الله أن أصابعي مازالت تنبض. يومها غادرت زمنك، حملت حقائبي الصغيرة، ورحلت بعيدا. اقتطعت ذاتي من ذاتي، ضمدت الجرح بعظمي، وفتحت الدرب الذي لست فيه، ومشيت.

كم مضى من عام؟.. سنوات العمر تمر، والأحلام التي رسمت ألوانها ذات مساء خريفي، وأنت تقف أمام لوحة من لوحاتي في معرضي الأول بتلك المدينة التي شهدت طفولتي وصباي، ولونت أحلامي الصغيرة بألوان قوس قزح.. وقفت طويلا أمام تلك اللوحة، كانت امرأة قد استضاء وجهها وهي تخرج من ظلال الليل لتتلون بنور الشمس.. في نظرتها كان التحدي، وفي ابتسامتها كان السكون. قلت لي يومها:

– أعجبتني هذه اللوحة، أحب المرأة التي تنظر دائما نحو الشمس، نحو الأفق البعيد متحدية، مصرة على أن تلامس بيديها النور مهما كانت شدة العتمة التي تحاصرها فهل أنت مثلها؟

أجبتك:

– ربما.

ولكن في أعماقي، أعجبتني كلماتك، أردت أن أعبر لك عن إعجابي بتفكيرك، بتحليلك ولكني التزمت الصمت، وانصرفت.

في صباح الغد سبقتني إلى المعرض، وجدتك واقفا أمام اللوحة كما أمس. اقتربت منك، وقبل أن أتكلم بادرتني:

– لا تعجبي، شدتني هذه اللوحة فأردت أن أعود لأتأمل خطوطها، وأستشف خباياها، ولم لا أشتريها إذا أمكنني ذلك؟!

وبلهفة لم أعهدها في تصرفاتي قلت لك:

– هي هدية لك، تعال وخذها يوم انتهاء المعرض، ستجدني في انتظارك. أنا متأكدة أنك ستحفظها كما تحفظ هذه الرموز التي تزين كتفيك.

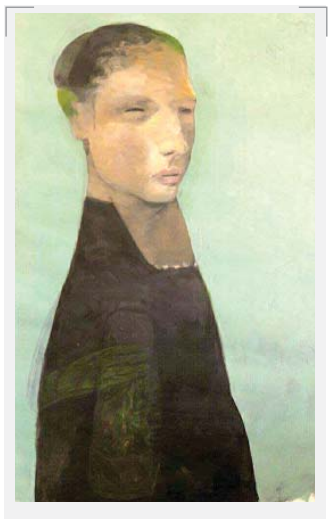

> **أردت أن أعبر لك عن إعجابي بتفكيرك، بتحليلك ولكني التزمت الصمت، وانصرفت**